

هذا وقد بلغ اهتمام عبد الملك بشئون البريد وتصريفه حدا جعله يوصى حاجبه بالا يمنع عامل البريد من الدخول عليه ليلاً أو نهاراً؛ لأنَّ عدم دخوله ساعة قد يفسد أعمال الولاية إدراكاً منه بأهمية البريد دوناً عن سائر النظم الإدارية الأخرى(1). سار الوليد بن عبد الملك على نهج والده في العناية بالبريد، ولكنه لم يكتف بما كان عليه البريد أيام والده من نقل الأخبار، ليصفح جدران المسجد الجامع بها (2) وحينما جلس عمر بن عبد العزيز على كرسي الخلافة، أضاف إلى نظام البريد نفحة من نفحاته؛ فمنع عمال البريد من ضرب بغال البريد بالأسواط التي تنتهي أطرافها بقطعة حديد، وألا يُعلق بها اللجم الثقال، وهذا ليس بالأمر الغريب على رجل مثل عمر بن عبد العزيز، الذي بلغ ازدهار البريد في عهده حداً جعله يرسله إلى المدينة المنورة ليلقى السلام على قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم)(3). حيث أفردوا له ديواناً كبيراً في بغداد، وقد اقتصر عمله على أعمال الدولة فقط، والذي أوصل ديوان البريد إلى تلك المكانة، وأعطاه تلك الأهمية هو الخليفة أبو جعفر المنصور - ثانى خلفاء بنى العباس - الذي أكد في أحد أقواله بأنَّ ملكه لا يصلح ولا يستقيم ولا تقام له قائمة إلا بنظام البريد؛ وحينما أتى ذكر الرابع عض على إصبعه السبابة ثلاثة مرات وفي كل مرة يقول : آه آه آه، ثم بلغ شغف الخلفاء العباسيين بالبريد ذروته إلى درجة جعلت أحدهم يصدر أمراً بأن حيث كان يهرب إلى شرفته عند مروره، وكانوا آنذاك يستعملون أبواباً ؛ كما كان يقول متفاخراً: "إنَّ صوت البريد لأنني أذن من الكرى لعيوني"(2). وإقامة المنازل على امتدادها لراحة ناقل البريد وتغيير خيولهم ؛ حتى صارت جميع الطرق تؤدي إلى بغداد عاصمة الخلافة، تماماً مثلما كانت جميع الطرق تؤدي إلى روما (3). استمر البريد في مواصلة نشاطه على قدم وساق إلى أن تم قطعه على يد البوهيميين منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي؛ حتى يتسى لهم إخفاء أخبارهم وحركاتهم عن الخليفة في بغداد، بعد أن كان نظام البريد - قبل ذلك يمكنه من أخذهم على غرة (1)، تبع انتقال حكم الفاطميين من بلاد المغرب إلى مصر تمعن الأخيرة بكثير من النظم الإدارية ذات الطابع المصري الحالى، ولدوره الفعال في الرابط بين تلك الأجزاء المتراكمة الأطراف ومركز الخلافة، وقد اعتمدوا على الحمام الزاجل بوصفه وسيلة سريعة من وسائل نقل الرسائل لإخبارهم بكل ما يدور في أرجاء دولتهم الشاسعة من أحداث، وبالغوا في الاهتمام به حتى أنَّهم "أفردوا له ديواناً ، وليس أدل على اهتمام الفاطميين بالحمام من أنَّ العزيز بالله ثانى خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنَّه لم ير القراسية البعلبكية منذ أمد طويل، فكتب الوزير لوقته بطاقة يأمر فيها حاكمه على العاصمة الشامية أن يجمع ما بها من الحمام المصري ويعلق في كل طائر حباتٍ من القراسية البعلبكية ويرسلها إلى مصر،